تشكلات الأبوة: ملامح الشخصية الأبوية في روايات الأجيال
دراسة في شجرة البؤس، وثلاثية محفوظ، وثلاثية علاء الديب

الباحث/ محمد ناصر حماد محمد

إشراف

الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم مدني

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث (تشكلات الأبوة: ملامح الشخصية الأبوية في روايات الأجيال. دراسة في شجرة البؤس، وثلاثية محفوظ، وثلاثية علاء الديب) بعضًا من ملامح الشخصية الأبوية التي تمارس سلطتها الممنوحة مقدمًا من المجتمع والتقاليد القبلية والموروثات العربية، ويهدف إلى الوقوف على تجليات هذه الملامح في الوعي الجمعي العربي المتشابكِ مع النصوص الروائية محل الدراسة؛ بوصفها نماذجَ من المنتوج الثقافي المعبر عن أطروحات الثقافة العربية والتقاليد المجتمعية. وقد تعرَّضتُ لهذه الملامح؛ لأنها التي تقوم عليها شخصية الأب المهيمن على أتباعه، وتحدد مسارات التابعين، وتخلق النموذج/ الضابط العام للعائلة أو الأسرة، وكذلك لأنها العنصر المحوري في حياة التابعين.

وقام البحث على قراءة تاريخانية جديدة وطرح تضافري للشخصيات الأبوية من خلال عرض الممارسات الأبوية المختلفة في الشكل، والمتحدة في المضمون في المادة عينة الدراسة؛ سعيًا إلى كشف الأنساق المضمرة، وتحليلها، وكشف شبكة العلاقات المكونة لهذه الأنساق. ولا يمثل هذا البحث حكمًا على ثقافة معينة أو مجتمع بعينه، بل هو أقرب إلى الكشف والعرض والتحليل؛ وجدير بالذكر أن نسق الأبوة لا ينحصر في القبح الثقافي فقط، بل يمثل كل علاقات التابع والمتبوع وما تستدعيه من جدلية المركز والهامش، بجميلها وقبحها؛ فوصاية الأب الشرعية والقانونية على أبنائه وما تستدعيه من طاعتهم ليست قبحًا. لكن البحث يسعى -بوجهة نقدية ثقافية- إلى الكشف عن المنتجات الفكرية والأنساق التي كونت ثقافة المجتمع الأبوية، وحددت علاقات المركز والهامش، والمؤسسات الفكرية المشكلة لهذه الثقافة.

الكلمات المفتاحية:

تشكلات الأبوة – روايات الأجيال – ثلاثية محفوظ – ثلاثية علاء الديب – شجرة البؤس – النسق الأبوي

Patriarchy Patterns: Features of the Patriarchal Characters in Sagas, Selected Examples

Research Abstract:

This research (Patriarchy Patterns: Features of the Patriarchal Characters in Sagas, Selected Examples) examines some features of the patriarchal character that practices its authority that is taken for granted by society, tribal norms and Arabic cultural heritage, and its purpose is to analyze these features and how they impacted the Arabic collective consciousness that influences the narrative texts under examination as examples of the cultural output that expresses the Arabic culture and social norms.

I have examined these features because they form the bases of the patriarchal character that dominates his subjects, and eventually tell where they go and create the general tuning of the family or the tribe. Also, it is the most important aspect of the life of the subjects.

This research is based on a New Historicism reading and integral examination of patriarchal characters through highlighting the patriarchal characters that look different but are really similar in the examined texts.

Key words:

Patriarchy Patterns – Sagas – Mahfouz's Trilogy – Alaa Aldeeb's Trilogy - Tree of Misery – Patriarchal Theme.

مقدمة:

يقوم النظام الأبوي في الأساس وفي الصورة الأكثر انتشارًا على الأب/ الزوج؛ إذ يمثل عمود الخيمة في هذا النظام، وعليه وحوله تنمو نواة الأبوة الأولى والكبرى في المجتمعات الأبوية؛ فإنه ينشِّئ أبناءَه على الولاء والطاعة، وفي بعض المجتمعات والعصور والثقافات تُجبَر الزوجة على ذلك، وإن كانت في تشريعات الدين مطالبة بطاعة زوجها؛ وهذه الطاعة في التوجه المعتدل مقترنة بالواجبات التي عليه أداؤها، والحقوق الواجبة عليها؛ ومفهوم الأبوة لا يقتصر على المقصود الشائع المبني على التحكم والهيمنة المفرطة والاستبداد بالرأي، بل يشمل عناية الأب/ المتبوع بالتابع وتوجيهه ورعايته، وتقويمه؛ ومن ثَمَّ تختلف توجهات المركز؛ إما بالاعتدال أو التطرف. وغالبًا ما تتم الممارسات الأبوية المتطرفة بالقوة والقسوة، ويتسلح الأب فيها بما خوله له المجتمع والتوارث والثقافة المختزلة في الوعي الجمعي والمفاهيم الخاطئة للدين. وفي هذه المنظومة الأبوية "يعد الأب أحد العناصر الفاعلة؛ إذ يجد نفسه أمام وضع يوجب عليه القيام بذلك الفعل السلطوي تجاه أبنائه وزوجته، سواء عن إرادة أو عن غير إرادة؛ لأن عدم قيامه بالفعل السلطوي هذا يعرضه لانتقادات شديدة، ومن ثَمَّ لعقوبات معنوية قد تقلل من شأنه ومكانته داخل الوسط الأسري الممتد"(١).

وإن الأب نفسه ليس بدعًا في ممارساته المتطرفة هذه، ولم يأت بها بين ليلة وضحاها، بل إنه نشَأَ عليها مثلما يُنشِّئ هو والمجتمع أبناءَه، ومورِسَت عليه كما يمارسها، وتعلّمها في مدرسة أبيه، والتقمها من ثدي أمه؛ إذ نشّأته بدورها كذلك على الولاء والتبعية لأبيه ورب القبيلة، وحين كبر رآها مثله تابعة مسلوبة الحقوق والإرادة؛ فلا ينفعها ما درج عليه المجتمع، ولا تجد من ينصفها؛ ومن ثَمَّ "يتناسب القهر الذي يُفرض على المرأة مع درجة القهر الذي يخضع له الرجل في المجتمع؛ فالأمر ليس مطلقًا غبنًا ورضوخًا يقابلهما مجرد سيادة وتسلط، كلما كان الرجل أكثر غبنًا في مكانته الاجتماعية مارس قهرًا أكبر على المرأة"(٢)؛ فهي علاقة طردية مستمرة، وقد تجلى ذلك في شخصية (أحمد عبد الجواد) الذي كان مضرب المثل في أبوية الزوج ورب الأسرة، ولا يزال مجالًا خصبًا للدراسات الأبوية في المجتمع العربي؛ فإنه رغم جده وحزمه وقسوته مع أهل بيته كان يرضخ لسلطة من أعلى منه، متمثلة في الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر حينها "تسري أنباء

(١) المرأة ومظاهر تغير النظام الأبوي في الأسرة الجزائرية، بلقاسم الحاج، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بن يوسف بن خدة، الجزائر، ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩م، صـ٣٩.

(٢) التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، مصطفى حجازي، ط٩، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م، صـ٢٠٢.

عجيبة حاملة حقائق كالأساطير... مواجهة الرجل الإنجليزي بمطالب الاستقلال، إمضاء التوكيلات الوطنية، التساؤل عن الخطوة التالية، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار، أنفس تُشرق بالآمال، ماذا وراء هذا كله؟!... **إن خياله السلمي الذي ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى**"(١).

وقد كانت صورة الأب المهيمن في أوج قوتها في (بين القصرين) وأخذت تنحني حتى وصلت أدنى حد لها في (السكرية)(٢)، حتى أصبحت (بين القصرين) أيقونة الأبوة والنزعة الذكورية المفرطة، ومضرب المثل في الأوساط العربية، خاصة المصرية، وقد "هدفت تجربة محفوظ إلى تكريس الأبوية التي لا تظهر إلا في عالم النماذج الثابتة، والأنساق المغلقة، وغياب الخصوصيات الفردية المميزة، والتعلق بالنماذج الرمزية التي لا تضخ إلى العالم سلسلة متواصلة من العلاقات النمطية التراتبية بين الأفراد، فأهمية الأفراد لا تأتي من أفعالهم، إنما من محاكاتهم لقيم كبرى تقليدية موروثة"(٣)، وإن تسليط المؤلفين الضوء على هيمنة الأب "بالتركيز على الجانب السلطوي في شخصيته وإبرازه بالمظهر المهيمن قد جاء نتيجةً لحرص الكتاب على استعادة تلك الصورة التي كان يوجد عليها الأب –ولا يزال– في المجتمعات الأبيسية(٤)، مثل مجتمعنا، وبمنزلة استجابة لحاجة الرواية إلى عكس صورة الأب، كما هي فعلًا في الواقع المجتمعي، أي بوصفها سلطة في المقام الأول"(٥).

مدونة: الدراسة:

١- شجرة البؤس لطه حسين.

٢- ثلاثية نجيب محفوظ: بين القصرين، قصر الشوق، السكرية.

٣- ثلاثية علاء الديب: أطفال بلا دموع، قمر على المستنقع، عيون البنفسج.

أبعاد الدراسة:

تناول البحث تشكلات الأبوة، واقتصر على أبوة الزوج ورب الأسرة، وبين ملامح الشخصية الأبوية، وبدأ بملخص باللغة العربية، ثم مقدمة نظرية قدمت فيها للبحث، ثم منهج الدراسة، ثم تناولت أهم الملامح المكونة للشخصية الأبوية باستنباطها من المادة عينة الدراسة، ثم خاتمة بها أهم النتائج، وقائمة بالمصادر والمراجع.

---

(١) بين القصرين، نجيب محفوظ، ط١٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م، صـ٣٨٩.

(٢) يُنظر: الأبوية والنسق المهيمن بين تشارلز ديكنز ونجيب محفوظ، د. طارق مختار سعد، العدد الحادي والأربعون، المجلة العلمية بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، الجزء الأول، ١٤٤٤هـ، ٢٠٢٢م، صـ٢٢١.

(٣) الأبوية الذكورية والسرد التفصيلي – تحليل التجربة السردية لنجيب محفوظ، عبد الله إبراهيم، العدد الخامس والستون، مجلة فصول، ٢٠٠٥م، صـ٢٧٦.

(*) تعني الأنظمة الأبوية.

(٥) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٠م، صـ٢٨٧.

منهج الدراسة:

تفرض طبيعة الدراسة الاستعانة بآليات التاريخانية الجديدة؛ لقراءة الثلاثيتين وشجرة البؤس من الوجهة التي حددها البحث. وستحاول الدراسة الاستفادة من أي معطًى منهجي يساعد على تحقيق ما تقصده.

وتسعى التاريخانية الجديدة إلى "فهم العمل أو الأثر الأدبي ضمن سياقه التاريخي، مع التركيز على التاريخ الأدبي والثقافي، والانفتاح كذلك على تاريخ الأفكار. ومن هنا، فقد ارتبطت التاريخانية الجديدة بمفهوم التاريخ والتطور التاريخي والثقافي، وقراءة النصوص والخطابات التاريخية في ضوء مقاربة تاريخانية جديدة، تهتم باستكشاف الأنساق الثقافية المضمرة، وانتقاد المؤسسات السياسية المهيمنة، وتقويض المقولات المركزية السائدة"(١).

ملامح الشخصية الأبوية:

يحظى الذكر في ذهنية المجتمعات الأبوية بالأفضلية على الأنثى، ويُقدَّم عليها في كل منفعة، وله الأثرة على الأنثى عند الإنجاب، وكلما كان المجتمع قبليًّا يعتمد على الذكر في تأمين قوت القبيلة والدفاع عنها ازدادت هذه الحظوة، وصار أقرب إلى المركز، وهُمِّشت المرأة وكلٌ من في حكم التابع. وعلى هذا النهج تقوم بنية المجتمعات الأبوية الهرمية، وبهذه الممارسات تُنعَت بمسمى الأبوة والذكورة، فنجد الرجال "يستأثرون بنصيب من القوة والامتيازات والحرية والحقوق في المجتمع أكبر مما تحوزه النساء، وأنهم يستطيعون بفضل ذلك أن يحققوا الهيمنة على النساء في مجالات عديدة"(٢)، فيُصبغ المجتمع بصبغة الذكورة، وتشكِّل الذكورةُ المهيمنة المعيارَ الموضِّح لهذا لمصطلح؛ إذ "تجسد الطريقة الأثيرة حاليًا لتكون رجلًا، وتفرض على جميع الرجال الآخرين أن يتخذوا مواقعهم بالعلاقة بها، وتضفي الشرعية الأيديولوجية على خضوع النساء العالمي للرجال"(٣).

وتعتمد المجتمعات الأبوية على بناء النسق الأبوي، وترسيخ الهيمنة الأبوية، وشيوع المركزية الذكورية التي "تشير إلى منظور ثقافي يحتل فيه الذكر موقع بؤرة الإنسانية، ويتم تأصيل فكرة المركزية الذكورية لتعود إلى بدايات تولي الرجل مقاليد

(١) نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، د. جميل حمداوي، شبكة الألوكة، ٢٠١١م، صـ١٩١.

(٢) المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المرأة العربية، أميمة أبو الخير، العدد الأول، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن عشر، ٢٠٢١م، صـ٦.

(٣) الذكورة المهيمنة إعادة نظر في المفهوم، رو كونيل وجيمس ميسرشميت، ترجمة: ثائر الديب، العدد الثاني والثلاثون، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، قطر، المجلد الثامن، ٢٠٢٠م، صـ١٤٦.

الأمور في المجتمعات الأولى وقيادة الحضارة"[١]، ومن ثَمَّ شكلت الأنظمة الأبوية القائمة على سلطة الذكر النسبةَ الأكبر في الأنظمة الاجتماعية المسيطرة منذ ظهور المجتمعات المنظمة وهيكلة الدولة، وتراجع النظام الأمومي، و"تمثل المركزية الذكورية ركيزة شبه أساسية في بناء الوعي الإنساني عامة منذ أقدم العصور، حيث تقف الأنثى دومًا في موقع الهامش أو موقع من يدور دومًا في فلك الذكر"[٢].

والاستمرارية من أهم العوامل المحافظة على الأنظمة الأبوية/ الذكورة/ البطريركية؛ إذ إنها "ذات قدرة ممتدة تراكمية على توريث هذه القيم والتقاليد ضمن نظام من الامتثال والقبول والمركزية الذكورية المطلقة التي تؤمن بالعلاقة الهرمية العامودية ومبدأ الوصاية في السيطرة وإحكام السلطة، وهي في ذلك تتأبّى على النقد والمساءلة"[٣]؛ حيث يرسخ الوعي الذكوري والممارسات المجتمعية الأبوية نسقًا متقبلًا، يوصف بالديمومة والاستمرار، ويُعَد ما سواه محظورًا، ومخالفًا للعادات والموروث والنسق العام، وهو "ميراث قديم قدم بناء الحضارات الأولى استمد قوته وشدته من تلك الجذور البعيدة التي دقت في أعماق الوعي الجمعي، ليقدم الذكر وكل ما هو مذكر في موقع الصدارة والعلو. ويتم الحط من شأن كل ما أُنّث"[٤].

وتجد ذكورة المجتمع بميلها إلى الذكر وتفضيله على الأنثى مسوغاتها في الرضا والقبول المجتمعي؛ وتتخفى خلف العادات والموروث، وسعْيِ المجتمع الحثيث إلى ترسيخها وفرضها من خلال المؤسسات المهيمنة، ومصادر التربية والتنشئة؛ "والقبول الثقافي، ومركزية الخطاب، والمأسسة، وتهميش البدائل أو نزع شرعيتها"[٥]، ويحافظ حاملو الثقافة الذكورية –سواء بداهةً أو قصدًا– على النسق الذكوري العام، وأبوته المسيطرة، و"يعيدون إنتاجها ويرفضون أن تحكم أوضاعهم وعلاقتهم قوانين أخرى غير التي نصت عليها، ما يبرهن على الأيديولوجية الذكورية التي تصبغها، وعلى مدى تمسك المجتمع بالمحافظة على الأوضاع السلطوية للذكورة"[٦].

---

(١) المركزية الذكورية وثقافة النسق في قصص :"قصة ساعة" لكايت شوبان، و"بيت من لحم" ليوسف إدريس، و"امرأتان" لعاموس عوز – (دراسة مقارنة)، ندى يسري، مجلة رسالة المشرق، العدد الثالث، جامعة القاهرة – مركز الدراسات الشرقية، المجلد الرابع والثلاثون، ٢٠١٩م، صـ٣٥١.

(٢) المركزية الذكورية وثقافة النسق، ندى يسري، صـ٣٤٩.

(٣) تمثيلات الذكورة وانعكاساتها في خطاب بدرية البشر القصصي، نضال الشمالي، العدد الثاني، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، المجلد السابع، ٢٠١٦م، صـ٥١١.

(٤) المركزية الذكورية وثقافة النسق، ندى يسري، صـ٣٤٩، ٣٥٠.

(٥) الذكورة المهيمنة إعادة نظر في المفهوم، رو كونيل وجيمس ميسرشميت، صـ١٦٥.

(٦) سلطة الذكورة وشرعيتها في الوعي النسائي. تحليل خطاب الحس المشترك، وسيلة بروقي، العدد الثالث، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة تبسة، الجزائر، ٢٠١٤م، المجلد الثالث، صـ٩٩.

وقد تعددت الملامح التي ترسم حدود الشخصية الذكرية بما يمنحه المجتمع للذكر، وما يوفره له من غطاء على أفعاله، وما يرتضيه ويصبغه بالقبول المجتمعي؛ ومن هذه الملامح والصفات التي اجتمعت عليها الشخصيات الرئيسة والمؤثرة في الأحداث: النرجسية، والنزعة الدينية، وتناقضات الشخصية، والسهر، والصراع الذاتي.

١- النزعة الدينية:

تشابهت شخصيتا (أحمد عبد الجواد) في (ثلاثية محفوظ)، و(الحاج علي) في (شجرة البؤس)؛ في نزعتهما الدينية؛ فـ (علي) كان تابعًا لشيخه، وله أوراد ثابتة، وكان محافظًا على الصلوات، ويرقى إلى درجة (شيخ) بالوصف الشعبي للشيخ، "فرغ الرجلان من صلاة العصر، ومما تعودا في أعقاب الصلوات من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير"(١).

أما (أحمد عبد الجواد) فقد حافظ على العلاقة الروحية الدينية في حياته؛ فكان يحافظ على الصلاة والعبادات "ثم جاء بسجادة الصلاة -وكانت مطوية على مسند الكنبة- فبسطها وأدى فريضة الصبح، صلى بوجه خاشع... هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التي ألانها الترف والتودد والاستغفار... هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى، حتى إذا انتفل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك في ذريته وتجارته"(٢). وقد أثرت الثقافة الدينية في محفوظ فتجلت في أعماله الأدبية؛ إذ كانت أحد "مكونات وعيه الجمعي الممثل لطبقته والمشكل لفردانيته الذاتية، وقد كانت الفلسفة الإسلامية في ذلك الوقت مخرجًا للأزمة"(٣).

وحتى (منير فكار) في (ثلاثية علاء الديب) رغم ما كان فيه من علاقة آثمة مع (أم عصام)، وسهر في صالات القمار، فإنه كان يلجأ إلى القرآن ويصلي، واقتنى مصحفًا، وسجادة صلاة، وكتُبَ أوراد وأدعية "قرأت القرآن كثيرًا في الغربة، وصليت في وطني الثاني، وحدي وفي الجوامع والشوارع في الفجر، والعصر، ووضعت في شقتي الخالية - بعد رحيل الأولاد- سجادة صلاة مزركشة، ومصحفًا كبيرًا على كرسي خشبي، واقتنيت كتبَ أوراد وأدعية"(٤).

(١) شجرة البؤس، طه حسين، صـ٧.

(٢) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٢٤.

(٣) نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، د. محمد علي سلامة، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧م، صـ٣٥.

(٤) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م، صـ٣٠.

٢- تناقض الشخصية:

يضفي التناقض والازدواجية Double Standards حركية على الشخصية، وديناميةً غير متوقعة، وهما من البوادر الأولى على الصراعات الداخلية التي يكشفها الراوي في أثناء الحكي؛ إذ "يجعل همه الأكبر أن يتتبع دواخل الشخصيات ويجسدها لتظهر على السطح تصارع وتواجه"(١). ورغم ما تحفل به الشخصية الروائية من سمات بسيطة أو معقدة فإن من أخطر ما يصنعها أو يسهم في رسمها الانفعالات والصراع الداخلي؛ إذ يجعلها "تعاني من تناقضات في تركيبها النفسي تؤدي بها إلى الاستسلام للنزوات والانقياد للرغبات الدفينة، وتجعلها –نتيجة لذلك– تفتقد إلى التناسق الضروري لكل شخصية سوية"(٢).

وتناقضات الشخصية من أسبابها الصراع الداخلي الذي "يؤدي إلى نوع من الانقسام في الشخصية، إلى نوع من الازدواج النفسي في طبيعته"(٣)، والشخصية المركبة أو المعقدة التي تحفل بالمتناقضات واللامتوقع تكون "في كل موقف على شأن... إنها الشخصية المغامرة الشجاعة المعقدة بكل الدلالات التي يوحي بها لفظ العقدةُ، والتي تكره وتحب، وتصعد وتهبط، وتؤمن وتكفر، وتفعل الخير كما تفعل الشر، وتؤثر في سوائها تأثيرًا واسعًا"(٤).

ومن بين الشخصيات الكثيرة في المادة عينة الدراسة برزت شخصيات كان من أهم سماتها التناقض إن لم يكن السمة الأهم، والمحرك الفعلي لها في مجريات الحكي والأحداث؛ وإن تفاوتت بين النماذج الثلاثة. وفي (شجرة البؤس) لم تتناقض شخصية (علي) كثيرًا، وكانت شخصيته بسيطة في أغلب أحواله، سوى ما ظهر منه حين تقدمت به السن وبدأ يكثر من النساء "ثم اختلفت الخطوب على أبي خالد فاستكثر من الزوجات، واستباح ما رخص الله فيه للمسلمين من تعدد الزوجات، وكان يتحدث إلى الناس في شيء من التبجح الذي كان يزداد كلما تقدمت به السن بأن الله قد أذن للمسلمين في أن يتزوجوا ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع، وأنه مصمم على أن يأخذ حقّه من ذلك كاملًا"(٥).

أما (أحمد عبد الجواد) فقد عجّت شخصيته بالتناقضات؛ وجمع بين المتعة والفكاهة بين أصحابه، والجد والحزم في بيته، فقد كان تناقض الشخصية وازدواجيتها سمة رئيسة

(١) ازدواجية الوجود الإنساني في رواية: حدائق الخريف" لحسن البنداري، إيمان السيد أحمد، العدد السادس، مجلة كلية التربية بجامعة الإسكندرية، الجزء الأول، ٢٠١٦م، صـ١١١.

(٢) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، صـ٣٠٢.

(٣) علم النفس والأدب، د. سامي الدروبي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، صـ٢٦٤.

(٤) في نظرية الرواية، د. عبد الملك مرتاض، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨م، صـ٨٩.

(٥) شجرة البؤس، طه حسين، ص ٢٨.

له، حتى إن ازدواجيته هذه كانت "أشبه بحالة من حالات الصراع النفسي"[١]، ومن أفضل من وصف تناقضاته د. سيزا قاسم في قولها ""السيد يعيش في ثلاثة عوالم منفصلة: عالم المنزل، عالم الدكان، عالم مجالس السهر والعوالم، ويحرص على بقاء كل منها منعزلًا عن الآخر"[٢].

وقد كان لهذا التناقض دوره في تحديد علاقته بأبنائه، وطريقة تربيته لهم، وكان أهمِّ ما جذب اهتمام الباحثين في شخصيته؛ إذ جمع بين المتضادات في شخصية واحدة، وأدار كلًّا منهما في إجادة وعناية، فيلبس أي الشخصيتَين حسب الاقتضاء والمقام؛ فإذا كان أمام أبنائه أظهر الحزم والجد، وبين ندمائه يظهر البشاشة والظرف والنكات "وكانت تنصت إلى زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة، ولولا أنها تسمعه كل ليلة في مثل هذه الساعة لأنكرته؛ فما عهدت منه –هي وأبناؤها– إلا الحزم والوقار والتزمُّت، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التي تسيل بشاشةً ورقة؟"[٣]. وربما كانت هذه التناقضات ناجمة عن تناقضات المجتمع واختلاف تياراته وأحزابه حينها، وتصارع التيارات المختلفة، واختلاف الثقافة بين من هم من أصول تركية، وبين المصريين، وكذلك الأجانب الذين استوطنوا البلاد حينها، ومن ثم كان "هذا الواقع المتناقض ماثلًا في وعي الكاتب المبدع المعبر عن طبقته الاجتماعية، وتجلى ذلك في العمل الفني الضخم الثلاثية"[٤].

وقد دأب (السيد أحمد عبد الجواد) على حزمه وجده هذين عندما يدخل داره، وما انفك يعيش بشخصيتيه هاتين دون أن يعرف أبناؤه شيئًا عن ذلك عمرًا طويلًا، وحتى زوجته ألفت ذلك منه ورضيته، بل إن رجوعه هذا من سهراته وسكره كان من أفضل الأوقات التي تلقاه فيها "وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له في هذا الساعة إقبالًا منه في الحديث، وتبسطًا في فنونه قبل أن تظفر بمثله في أوقات إفاقته الكاملة... وبمضي الأيام والليالي ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه في جميع الأوقات، فيخفف من صرامته، وترق ملاحظته، ويسترسل في الحديث، فاستأنست إليه واطمأنت"[٥]، وقد جمع بين الجد والحزم فوفق بينهما جيدًا فكان "يجدُّ الجدَّ كله كلما دعا الداعي إلى الجد، ولكنه لا يتردَّد عن تلطيف جوِّه بالمزاح والدعابة كلما لاحت له صادرًا

(١) الأبوية والنسق المهيمن بين تشارلز ديكنز ونجيب محفوظ، د. طارق مختار سعد، ص ٢٣٦، ويُنظَر: جدلية الوعي السائد والمتحول في ثلاثية نجيب محفوظ، د. صبيح مزعل جابر، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية بجامعة بابل، العدد الرابع، المجلد الرابع والعشرون، ٢٠١٧ م، صـ١٧٠٦.

(٢) بناء الرواية – دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، صـ١٧٢.

(٣) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١٢.

(٤) نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، محمد علي سلامة، صـ٣٥.

(٥) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١٥.

في ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة، وإن بدا ذا قدرةٍ عجيبةٍ على التوفيق بينهما، فلا جـدُّه بقاهر مزاحه، ولا مزاحه بمُفسدِ جده"(١).

وقد تدخل الراوي العليم تدخلًا صريحًا معلقًا على هذه التناقضات قائلًا: "والحق لـم يكن السيد مرهوبًا مخوفًا إلا بين أهله، أما بين سائر الناس من أصدقاء ومعارف وعمـلاء فهو شخص آخر، له حظه الموفور من المهابة والاحترام، ولكنه شخصية محبوبة قبل كـل شيء، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس"(٢).

وكان (أحمد عبد الجواد) يحرص على ألّا يراه أهل بيته علـى حالـه تلـك عنـد عودته؛ حتى يحافظ على وقاره وهيبته في نفوسهم؛ فإنه "لم يكن ليقرر العـودة إلـى بيتـه حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصًا منه على وقـاره، والمظهـرِ الذي يجب أن يبدوَ به في بيته"(٣). وقد جمع بين السهر والـسكر مـع أصـحابه وندمائـه والمجون مع العوالم والراقصات، وصورة الرجل التقي العابد أمام زوجته وأبنائه "إلى هـذا الحد يبدِّد إخلاص الرجل في كل شيء؛ أي إن السلوك الديني عنده لم يكن أجوف، ولكنـه لم يكن مؤثرًا؛ فلم يزجره ورعه ولا تقواه عن ممارسة حياته الخاصة مع العـوالم وعـن معاقرة الخمر، بل إنه يستخدم الدين أحيانًا لتبرير أفعاله"(٤)، وربما كان يُعوِّل على عفو الله وغفرانه، وأن التوبة لا محالة آتية.

ورغم التناقضات التي حددت معالم شخصيته، ورغم أنه "أبـاح لنفـسه ممارسـة الفحشاء مع بائعات الهوى فإنه كان يحرص كل الحرص على تربية أبنائه علـى الفـضيلة والعفة"(٥)، ولم تكن ليالي السكر والسهر مانعًا يؤثر في تربية أبنائه على ما أراد من خير.

وكان في بيته يكاد يُظن –مما يظهر من تقوى وخشوع وحسن أداء للصلاة– أنـه أحد العباد الزهاد؛ فإنه في صلاته "لم يكن يصلي صلاة آلية قوامها التلاوة والسجود، ولكن صلاة عاطفة وشعور وإحساس يؤديها بنفس الحماس الذي ينفضه على ألوان الحيـاة التـي يتقلب فيها جميعًا، كما يعمل فيتفانى في عمله، ويصادق فيفرط في مودته، ويعشق فيـذوب في عشقه، ويسكر فيغرق في سكره، مخلصًا صادقًا في كل حال"(٦). وقد كاشـفته (جليلـة

(١) بين القصرين نجيب محفوظ، صـ٣٨٦، ٣٨٧.

(٢) بين القصرين نجيب محفوظ، صـ١٤.

(٣) بين القصرين نجيب محفوظ، صـ١٥.

(٤) نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، محمد علي سلامة، صـ٩٩.

(٥) البناء الدرامي لشخصية "السيد أحمد عبد الجواد في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ"، فرج عمر علي فرج، العدد الثاني والثلاثون، المجلة العلمية لكلية التربية النوعيـة، جامعة المنوفية، ٢٠٢٢م، (٨٣٥/١).

(٦) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٢٤.

العالمة) بتناقضاته هذه في عرس ابنته جليلة أمام ابنَيه فهمي وياسين ومن في المجلس، فقالت: "لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وأنت بِركة فسق؟"(١).

وهذه التناقضات التي جمعها (أحمد عبد الجواد) كانت مستقاةً من الطبقة البرجوازية "فشأنه شأن البرجوازية التي تحرص على المظهر وإن خالف الباطن، وهذه الطبقة عبرت عنها الشخصية بوصفها رمزًا للتناقضات والازدواجية في مواقفها في الحياة"(٢)، وهذا التناقض ربما كان سببه حال البلاد حينها؛ إذ كانت بين رحى الإنجليز والحرب العالمية الأولى، فكان يهرب من واقعه إلى ملذاته ومتعته.

وقد شابه (منير فكار) (أحمد عبد الجواد) في تناقضات الشخصية، وإن لم يظهر أثرها في زوجته وأبنائه؛ بسبب الطلاق وحصول زوجته على حضانة الأطفال، وقد جمع تناقضات عدة، وكانت إحدى سماته الرئيسة، وأثرت أيمّا أثر في شخصيته وعلاقاته بالآخرين ومحيطه، وربما هي التي أفسدت عليه حياته، وجعلته منبوذًا من كثيرين، وهو نفسه كان يَعرف تناقضاته، ويصارح بها نفسه "استيقظت شبه عارٍ إلى جوار أم عصام، لست أنا الدكتور منير المحاضر في جامعة دلوك، أنا ولست أنا، عيناك عليَّ ولا تراني، أين أولادي، وكتبي، وتلاميذي، أين أطروحتي، وأوراقي، ومقالاتي، وأفكاري الأدبية؟"(٣) ورغم علاقته المحرمة هذه بأم عصام بعد طلاقه من زوجته فإنه كان يقرأ القرآن، ولم ينهه القرآن والصلاة عن ذلك(٤)، وهذه التناقضات لم يلم بها الراوي فقط، بل كان عالمًا بها، ومدركًا تسبُّبها في أزمته الوجودية وصراعاته الذاتية، حتى إنه كان يحاول إخفاء ذاته أو ذواته؛ فربما كان يخشى من افتضاح وجوهه، وانكشاف زيفه، وربما كان يعاني نوعًا من الفصام أو الرهاب الاجتماعي؛ فخشي التعامل مع الناس، وكره اسمه الذي اشتُهِر بسبب بحوثه وكتاباته "لأن هناك صحفيًا نشيطًا اشتهر اسمه منذ سنوات، أخذ يكتب في الجرائد والمجلات... فقد أضفت إلى اسمي لقب العائلة (فكار)؛ في الحقيقة لم أكن سعيدًا بذلك؛ فهو اسم ثقيل في سمعي وقلبي. كنت أتمنى أن يظل محبوسًا في حسابات البنوك والعقود والحجج الرسمية. ولكنني أضفته في النهاية كما أضفت في البداية حرف (الدال)؛ لكي يتأكد أنني شخص آخر غير ذلك الصحفي المناضل ذي الألف وجه"(٥).

(١) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٣١٩.

(٢) اغتراب البطل في ثلاثية نجيب محفوظ، د. عبد التواب محمود عبد التواب، العدد الثامن والعشرون، مجلة الزهراء، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، القاهرة، ، ٢٠١٨م، صـ٩٦٨.

(٣) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٢٤.

(٤) يُنظَر: ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٣٠.

(٥) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٣٣، ٣٤.

ويبدو جليًّا أن شخصيتي (السيد أحمد عبد الجواد) و(د. منير فكار) التقتا في التناقض بين الأفعال الدينية والأفعال التي ترقى إلى الكبيرة في حكم الدين؛ وإن كانت شخصية (السيد أحمد عبد الجواد) هي الأشد تناقضًا؛ ومن ثَمّ "نجد أنفسنا في صميم الرياء الأخلاقي والديني الذي تقوم عليه السلطة الأبوية"(١).

٣- السهر واتخاذ الندماء:

يعد السهر ومجالسة الأصدقاء أحد التقاليد الثابتة للرجل؛ فهو يقضي نهاره في عمله أيًّا كان نوعه، ومن ثم يقضي ليله منفّسًا ومروحًا عن نفسه، وتتعدد السبل في ذلك، كلٌّ حسب ما توجهه نفسه وهواه، ويوشك أن يكون السهر الليلي المتكرر صفة أبوية معبرة عن الرجولة وأحد جوانب اكتمالها، وهو قارٌّ في عقل كثير من الرجال، وقد جرى على لسان (ياسين) حين كاشفته زوجته بحزنها لتكرار سهره وعودته ثملًا، فقال لها: ("لا داعي للحزن يا عزيزة، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال، هكذا الرجال جميعًا، والزوج المخلص يحافظ على أمانته وهو بعيدٌ عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها، ثم إنني أتزود من السهرة ترويحًا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعة كاملة". ولما عرَّضت بسكره محتجةً بأنها تخاف على صحته، ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرِّقَّة والحزم: "كل الرجال يسكرون")(٢)، ويبدو أن هذه الصفات لم ترسخ في وعي الرجال فقط، بل امتدت إلى النساء، سواء كان حماية منهن لعرش الأب، أو هذا ما وجدن عليه أمهاتهن "ووقر في نفسها أن الرجولة الحقة والاستبداد والسهر إلى ما بعد منتصف الليل صفات متلازمة لجوهرٍ واحد"(٣).

وقد اتخذ السهر ومجالسة الأصدقاء في النماذج عينة الدراسة أشكالًا عدة؛ فمنها ما كان في حلقات الذكر وإحياء الليل في الطاعات؛ وكان هذا حال أكثر شخصيات شجرة البؤس، فقد كان (علي) في (شجرة البؤس) يجلس على الدكة التي أمام البيت ويجاء إليه بالقهوة والإفطار "فرغ الرجلان من صلاة العصر... ثم تحولا عن مجلسيهما إلى مصطبة في ناحية من نواحي الحجرة لا تخلو من ترف... ولم يكد الرجلان يأخذان مجلسهما حتى أقبل الخادم يحمل إلى أحدهما غليونه الطويل، وأقبل خادم آخر من ورائه يحمل إليهما القهوة"(٤). وسهراته لم تكن سوى جلسات ذكر عند شيخه ولم تكن جلسات سكر كجلسات

(١) بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، صـ٢٨٢.
(٢) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٣٩٠.
(٣) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٩.
(٤) شجرة البؤس، طه حسين، صـ٧، ١٤، ١٦.

السكر التي كان يحييها (أحمد عبد الجواد)، ولم تكن فيها مواقعة للنساء، بل كانت في خلوة وأوراد، وتعبد وصلوات مع الشيخ وأتباعه خاصه في رمضان.

أما (أحمد عبد الجواد) فكانت سهراته تعج بالسكر والنكات والتندر من الندماء والأقران، وكانت عادة متكررة كل ليلة، ويعود متأخرًا، "ها هو حنطور أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة إلى باب البيت الكبير"(١)، وقد ألفت زوجته منه ذلك، وواظبت على استقباله حين عودته من سهره هذا فتضيء له المصباح؛ والمفارقة هنا أن هذا الاستقبال يليق بزوج عائد من معركة منتصرًا أو عائد من سفر، أو عائد من عمل ليلي يقوت به أهل بيته، لكن أن يكون الاستقبال لزوج عائد من سهر فيه خمر وسكر ورذائل أمر ربما يصعب فهمه، لكن سياق الحكي يوضح أن قيامها هذا اعتادته وفُرِض عليها في جملة المفروضات الأبوية الزوجية "هي العادة التي توقظها في هذه الساعة، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها، تلقَّنتها فيما تلقَّنت من آداب الحياة الزوجية، أن تستيقظ في منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته"(٢).

وسهره هذا مع ندمائه وأصدقائه لم يكن ما أثار الباحثين في هذه الشخصية الأبوية الفريدة، بل ما كان يتخلله من سهرات في بيوت العوالم والراقصات والغانيات وممارسة الرذائل دون رادع، وتكررت سهراته مع العوالم هذه، وأخذت قسطًا كبيرًا من وقته، ومن الفضاء النصي الذي قصَّه الراوي؛ فقد استنفدت أول جلسة له مع زبيدة العالمة ثماني عشرة صفحة(٣)، وكذلك أخذ السهر حيزًا كبيرًا من تفكيره، حتى إنه حين كان يرجع من سهره يفكر في السهرة القادمة، ويسترجع نشوته وطربه في السهرة المنصرمة "وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة –في جلسته هذه– لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة، فسرعان ما ينتبه إلى نفسه، ويطبق شفتيه، ويسترق إلى زوجه نظرة، فيجدها كعادتها بين يديه خافضة العينين، فيطمئن ويعود إلى ذكرياته. والحق أن سهرته لم تكن تنتهي بعودته إلى بيته، ولكنها تواصل حياتها في ذكرياته، وفي قلبه الذي يجذبها إليه بقوة نهم إلى مسرات الحياة لا يُروى، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختارة من أصدقائه وأصفيائه، ويتوسطه بدر من البدور التي تطلع في سماء حياته حيناً من بعد حين، وما برحت تطنُّ في أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التي تجود قريحته بدُرَرها إذا

(١) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١١.

(٢) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٦.

(٣) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١٠٦: ١٢٣.

هزَّه السُّكْر والطرب، وهذه المُلَح خاصة يراجعها في عنايةٍ واهتمام ينضحان بالعجب والزهو"[١].

وكذلك (منير فكار) كان يقضي شيئًا من وقته في السهر مع صديقه (يحيى الكيال)، ولم يكن له أصدقاء وندماء كثر مثل (أحمد عبد الجواد)؛ بسبب تناقضاته ورهابه الناس، أو ظنه أنهم يطمعون فيه، وكذلك لطبيعة حياته العملية التي فرضت عليه الاغتراب للعمل خارج مصر، لكنه كان يقضي بعض وقته في إجازته بمصر مع صديقه "لقاء الأربعاء عند يحيى الكيال دائمًا لقاء كبير، يضم أقطابًا ومعلمين كبارًا في كل شيء وفي كل حرفة، وكل رذيلة... وغالبًا ما ينتهي الليل بأن يتعرى واحد منهم، أو يرقص، يغرق في بكاء"[٢].

وكان له لقاءات ثابتة بمواعيد محددة مع زملائه في القسم "يتكرر هذا اللقاء كل عام، ولا أعرف أبدًا لماذا أذهب إليه، ماذا آخذ منه: لقاء الزملاء أساتذة القسم في القاهرة هنا. نعد له من أول الإجازة، ويشترك الجميع في دفع تكاليفه الظاهرية، يتأجل مرات، ويعاد ترتيبه مرات... يُعقد مرة في مكان عام، ومرة في بيت واسع من بيوت الأساتذة الذين أنهوا الإعارة واستقروا هنا"[٣].

٤- النرجسية Narcissism

تمثل النرجسية نمطًا معقدًا وشائعًا للشخصيات في الأعمال الأدبية، فتترك بصمتها في شخصية صاحبها، وتضخِّم لديه ذاته (الأنا)، وتجعله في نظر نفسه أفضل من غيره، وأعلى شأنًا، ومن ثمّ تأخذ علاقاته بالآخرين شكلًا متسلطًا؛ إذ "يعتقد مجنون العظمة أنه يشكل مركز العالم؛ ويجب ألا يُرفَض له أي طلب أو رغبة"[٤]. وتتبع النرجسية بصفاتها من الصدمات والعنف والقهر الأسريِّين، وما يلاقيه الطفل من تنشئة غير سوية، فترسخ فيه عقلية الانتقام والثأر.

والنرجسية "مصطلح يشير عمومًا إلى الشعور الذي يستحوذ على المرء ويجعله يعشق صورته أو أنانيته أو جسده أو مثالًا معينًا له"[٥]، ومن ثَمّ تنشأ عن هذه التربية المشوهة وما يعانيه الفرد في الجماعة من سحق للذات وتذويب للشخصية وما يلاقيه من فروض الولاء والطاعة "نزعة نحو الفردية والأنانية والتأكيد الدائم على (الأنا) أكثر من

(١) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١٦.

(٢) ثلاثية علاء الديب، صـ٣٠.

(٣) ثلاثية علاء الديب، صـ٤٢، ويُنظَر صـ٤٣.

(٤) بنية السلطة وإشكالية السلط التربوي في الوطن العربي، علي أسعد وطفة، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠م، صـ٢٠٣.

(٥) النسوية وما بعد النسوية، تأليف: سارة جامبل، ترجمة: أحمد الشامي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢م، صـ٤٢٢.

التأكيد على (النحن)... إن الهيمنة السلطوية في العائلة والمؤسسات الأخرى من بين أهم مصادر النزعة الفردية"[١].

وقد زخرت المادة عينة الدراسة بالشخصيات النرجسية الرئيسة وآثارها المدمرة لبنية الأسرة، وما تنتهجه من فردية ووحدانية نابعتين من التقدير المبالغ فيه للذات؛ فكانت شخصية (أحمد عبد الجواد) محورية في (ثلاثية محفوظ)، وربما كانت (الأنا) المفرطة أهم سبب مكون لشخصيته السلطوية، وساس بيته وأبناءه بنرجسيته منقطعة النظير؛ إذ كان لا يتبسم في بيته أو يضحك أو يعاملهم برقة لئلا تهتز صورته لديهم، ويظل محافظًا على قدسية الصورة التي كرسها طوال طفولتهم، بل إن نرجسيته كانت عاملًا رئيسًا في رفضه خطبة الضابط يد ابنته (عائشة)، وجعل من نفسه محل ابنته في الرغبة في المصاهرة، وثار غضبه رافضًا هذا الزواج، وقال: "لا أريد أن أعطي ابنتي لأحد ليثير الشبهات حول سمعتي، بل لن تنتقل ابنتي إلى بيت رجل إلا إذا ثبُت لدي أن دافعه الأول إلى الزواج منها هو رغبته الخاصة في مصاهرتي أنا.. أنا.. أنا.."[٢].

ويُلاحَظ من سير الأحداث أن ما يهمه ويعنيه سمعته فقط، فقد وردت مرة أخرى حين علم بسوء خلق (خديجة) مع حماتها، وكان أكثر ما اهتم له ما يجلبه خلقها السيئ من شر إليه، لا من شر إليها، أو إلى بيتها "من أين جئتِ بهذا الخلق يا خديجة؟ ما كان ينبغي لأحد نشأ في بيتي أن يعرفه، أنسيتِ أمّكِ وما تتحلى له من أدب ودماثة؟ أنسيتِ أن أي شر تأتينه إنما يسود وجهي أنا؟ لقد عجبت والله وأنا أستمع إلى حديث أمك ولسوف أعجب طويلًا"[٣].

وقد أثر هذا التضخم في علاقته بأبنائه، ولم يرهم إلا حشرات، وخبثًا، ولم يسمح بأن يناوئه أحدهم أو يعصي له أمرًا، وكان حديثه إليه قائمًا على الإذلال والمهانة والحط من شأنهم؛ "فبقدر ما تتضخم (أنا السيد) وينهار الرباط الإنساني بينه وبين المسود، يصبح الأول أسير ذاته، وينحدر الثاني إلى أدنى سلم الإنسانية، ويصبح عنف علاقة التسلط القانون الذي يحكم حياة الإنسان المقهور بأجمعها"[٤]، وقد ظهرت آثار الذات المتضخمة المحمّلة بـ (الأنا) في خطابه العنيف المحقِّر لابنه (فهمي) حين علم بخروجه في المظاهرات على خلاف رغبته، فقال له: "أنت تكذب عليَّ يا ابن الكلب!.. أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقني، ماذا تظن بي وماذا تظن بنفسك!.. أنت حشرة خبيثة

(١) المجتمع العربي المعاصر، حليم بركات، صـ٢٢٢،٢٢١.

(٢) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ١٨٦.

(٣) قصر الشوق، نجيب محفوظ، صـ٣٠٥.

(٤) التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، د. مصطفى حجازي، صـ٤١.

مجرمة، بنت كلب خُدعتُ بظاهرها طويلًا، لن أنقلب امرأة على آخر الزمن... حيرتموني وجعلتموني أضحوكةَ الناس"(١).

وكذلك أثرت نرجسية (منير فكار) في (ثلاثية علاء الديب) تأثيرًا كبيرًا في علاقاته بمن حوله، سواء أكانوا ذوي قربى أم غيرهم، وكان ينظر إلى غيره بتعالٍ وغطرسة كبيرَين، ونتج عن نرجسيته نسق أبوي لازمه طوال حياته، وجعله يعاني غربةً نفسية قاسية، فأنتجت ذاتيته شخصية مشوهة لا ترى الخير والحق والجمال إلا فيه –إن رأى فيه نفسه خيرًا– إذ "تستمد الذات الإنسانية صورة موحدة بشكل مرضٍ عن نفسها عن طريق التوحد بموضوع يعكس هذه الصورة فيعيدها إليها في حلقة مغلقة، نرجسية،... وتتضمن هذه الصورة إساءة إدراك؛ حيث إنها تضفي المثالية على وضع الذات الواقعي"(٢).

وكان يرى من عرفهم في حياته جهلاء يجدر ألّا يصاحبهم "ليست نقودي هي التي تفصلني عنكم، ولكنه استياء.. وقرف منكم، ومن حالكم وجهلكم، وقلة حيلتكم، وهوانكم على أنفسكم، وهوانكم على الناس، أصاحب الآن من هم أحسن منكم: الموت، الجنس والجنون، السندات، والحصص، والأسهم، والشقق"(٣)، وتساوى عنده المثقف وغير المثقف في الدونية، ومن عرف ومن لم يعرف، حتى إنه كان ناقمًا على المارة بالشوارع والشوارع ذاتها، فأصبح سليط اللسان، متبرمًا من الناس والحال والحياة كلها "كان السؤال يتردد آلاف المرات، من أشخاص أقابلهم صدفةً في غربتي الخاوية، هل أنت منير عبد الحميد الذي قال... هل أنت منير عبد الحميد الذي كتب... وكنت غالبًا أجيب بغضب وضيق صدر. لعنة الله على الزمن الذي يتشابه فيه البقر. ما أجهلهم من جاوب مطلوقة في أرض مرعاها قليل"(٤).

وكان (منير فكار) نرجسيًّا بامتياز، وشخصية أبوية مثالية نظريًّا، وقد حاول فرض أبوته على زوجته بالقوة والإكراه والتقليل من شأنها، والتسفيه من رأيها رغم أنها أستاذة جامعية مثله، بل إنه كان كلما ذكرها في حديثه ذكرها بسوء أو صفة مستقبحة، ولم يخجل من تقريعها والحط منها في حكيه "فعلى الرغم من أنها تغسل وجهها وجسدها آناء الليل وأطراف النهار، فإن رائحة مؤامراتها ضدي فواحة كريهة كرائحة حيضها الشهري الذي لا تعرف كيف تخفيه"، وكان يجد في سببها وذكر مساوئها وسيلةً إلى تعويض أبوته

(١) بين القصرين، نجيب محفوظ، صـ٤٩٧.

(٢) مقدمة في نظرية الأدب، تأليف تيري إيجلتون، ترجمة" أحمد حسان، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ١٩٩١م، صـ٢٠٧.

(٣) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٢٩.

(٤) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٣٤.

التي سلبته إياها؛ فـ "السلطوية والسيطرة بالنسبة إلى السلطويين تعويضان نفسيان أساسيان للوجود والاستمرار، وهذا يعني أن إذلال الآخرين يمنحهم وهم السمو والقوة، ومن ثَمَّ عندما يمارسون فعالية القهر والإذلال يشعرون أنهم أنجزوا عملًا عظيمًا"(١)، وتسهم هذه العوامل في بناء الشخصية النرجسية وتشكل الأنا Ego Formation.

واستمرت محاولاته هذه طوال علاقتهما التي لم تدم كثيرًا، وكان يرجع خلافاتهما وما بينهما من شقاق إلى غبائها وقلة عقلها وجنونها "تحملت كرامتي من غبائها الكثير"(٢)، ورغم محاولاته الأبوية تلك فإنه لم يستطع فرض أبوته؛ لمناوأتها إياه، وخروجها عليه، فازداد نرجسيةً، وتفاقمت غربته النفسية، ولم تحتمل فراغه الداخلي وأنانيته، وفضلت الطلاق؛ لتنجو بنفسها وطفلَيها (تامر) و(علياء).

(١) بنية السلطة وإشكالية السلط التربوي في الوطن العربي، علي أسعد وطفة، صـ١٣٣.

(٢) ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، صـ٨٦.

الخاتمة:

تناولت في هذا البحث بعضًا من الملامح المهمة للشخصية الأبوية/ الذكر بقوتها كما في (ثلاثية محفوظ)، وخاصة (بين القصرين) وضعفها كما في ثلاثية (علاء الديب)، فكان منها السهر بوصفه ملمحًا ذكوريًّا، وعلامة من علامة الرجولة عند ذويه، وملمحًا يقبله المجتمع ويعمل على استمراريته، والسهر المتكرر بوصفه إحدى سمات الرجولة عند أصحابه، والتناقضات الفجة التي تصل إلى صنع شخصيتَين مختلفتَين تمامًا، كما في شخصية (السيد أحمد عبد الجواد)، والنرجسية وأثرها في علاقة الذكر بالآخرين. واستُخلِصَت هذه السمات من عينات ثرية وممتدة عبر عدة أجيال سواء في العمل الأدبي – لأن الروايات تتدرج تحت روايات الأجيال– أو المراحل التي عاشها المجتمع المصري بدءًا من نهايات القرن التاسع عشر إلى نهايات القرن العشرين، وقد خلُص البحث إلى نتائج، منها ما يأتي:

١– إن الممارسات الأبوية لا تقف على حدود فترة معينة، أو طبقة اجتماعية بعينها، أو مجتمع بعينه؛ إنما تمررها التقاليد المجتمعية بقبولها أو رفضها، وما تفرضه الفترة التاريخية من سبل عيش أو ضغوط اقتصادية وسياسية، والأهم من ذلك ما يرتضيه رب كل أسرة من سبل في تسيير بيته.

٢– كانت ثلاثية محفوظ أحد أهم الأعمال التي قدمت للنسق الأبوي المتسلط، ومثلت جانبًا من الطبقة الوسطى المصرية التي تمثل الصورة العامة للمجتمع، وإن شذت في بعض تصرفاتها.

٣– مثلت (بين القصرين) النموذج الأهم بين الروايات عينة الدراسة لما طرحته من ممارسات أبوية كثيرة وطاغية، وذلك بحضور شخصية (السيد أحمد عبد الجواد) القوية والمهيمنة فيها، لكن هذا الممارسات اتخذت نسقًا هابطًا في (قصر الشوق) و(السكرية).

٤– كانت (ثلاثية علاء الديب) أقل الروايات التي مثلت ممارسات الأب المفرطة؛ فقد قوبِلَت ممارسات (منير فكار) بالرفض والمواجهة من زوجته (سناء فرج) ولم يستطع حتى فرض أبويته المعتدلة عليها؛ وذلك لاختلاف البيئتَين اللتَين أتيا منهما، ولجوئها إلى الطلاق للتخلص من إرهاصات الأبوة عنده.

٥– بدأ نسق الأبوة متسعًا في (شجرة البؤس) بما مارسه (الحاج علي) على أسرته، وما مارسه (الشيخ) على تابعيه ومريديه، وكان سمة المجتمع حينها بما أظهرته الرواية. واستمر هذا النسق في ثلاثية (محفوظ)، وإن اقتصر الإفراط فيه على منزل (السيد

أحمد عبد الجواد)، ولم يكن سمة عامة للمجتمع؛ فقد اختلفت التربية بينه وبين (محمد عفت) صديقه، فضاق حيز هذا النسق. واكتسبت (بين القصرين) شهرة أكبر في طرحها الممارسات الأبوية لكثرتها فيها، وبراعة الكاتب في إظهار حدتها، أما في (شجرة البؤس) فطُرِحَت على أنها السمة العامة، وبتلميح يسير من (طه حسين) إلى مخالفتها الفطرة السليمة والمبادئ الشرعية المعتدلة. ثم خفُت في (ثلاثية علاء الديب)، وإن اقتصر على بعض الممارسات التي تعرض لها الراوي في قصص وأسطر لا تزيد على أصابع اليد، مثل معاناة (لمياء) مع زوجها، ومعاناة الشاعر (حسين كاظم) مع أبيه.

ثبت المصادر والمراجع:

المصادر:

- بين القصرين، نجيب محفوظ، ط١٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م.
- ثلاثية علاء الديب، علاء الديب، ط٢، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٧م.
- شجرة البؤس، طه حسين، الطبعة الثالثة عشرة، دار المعارف، د. ت.

المراجع:

- بناء الرواية – دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، سيزا قاسم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
- بنية السلطة وإشكالية السلط التربوي في الوطن العربي، علي أسعد وطفة، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠م.
- بنية الشكل الروائي، حسن بحراوي، ط١، المركز الثقافي العربي، ١٩٩م.
- التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، د. مصطفى حجازي، ط٩، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٥م.
- علم النفس والأدب، د. سامي الدروبي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة.
- المرأة ومظاهر تغير النظام الأبوي في الأسرة الجزائرية، بلقاسم الحاج، رسالة ماجستير، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة، ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩م.
- نظريات النقد الأدبي في مرحلة ما بعد الحداثة، د. جميل حمداوي، شبكة الألوكة، ٢٠١١.
- نموذج الشخصية الدينية في روايات نجيب محفوظ، د. محمد علي سلامة، ط١، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧م.

المجلات والدوريات:

- الأبوية الذكورية والسرد التفصيلي – تحليل التجربة السردية لنجيب محفوظ، عبد الله إبراهيم، مجلة فصول، عدد ٦٥، يناير ٢٠٠٥م.
- الأبوية والنسق المهيمن بين تشارلز ديكنز ونجيب محفوظ، د. طارق مختار سعد، المجلة العلمية بكلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد الواحد والأربعون، الجزء الأول، ١٤٤٤هـ، ٢٠٢٢م.
- ازدواجية الوجود الإنساني في رواية: حدائق الخريف" لحسن البنداري، د. إيمان السيد أحمد، مجلة كلية التربية بجامعة الإسكندرية، العدد السادس – الجزء الأول، ٢٠١٦م.
- اغتراب البطل في ثلاثية نجيب محفوظ، د. عبد التواب محمود عبد التواب، مجلة الزهراء، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، القاهرة، العدد الثامن والعشرون، ٢٠١٨م.

- البناء الدرامي لشخصية "السيد أحمد عبد الجواد في رواية بين القصرين لنجيب محفوظ"، فرج عمر علي فرج، المجلة العلمية لكلية التربية النوعية، جامعة المنوفية، العدد الثاني والثلاثون، ٢٠٢٢م.
- تمثيلات الذكورة وانعكاساتها في خطاب بدرية البشر القصصي، نضال الشمالي، العدد الثاني، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، المجلد السابع، ٢٠١٦م.
- جدلية الوعي السائد والمتحول في ثلاثية نجيب محفوظ، د. صبيح مزعل جابر، مجلة العلوم الإنسانية، كلية التربية بجامعة بابل، العدد الرابع، المجلد الرابع والعشرون، ٢٠١٧ م.
- الذكورة المهيمنة إعادة نظر في المفهوم، رو كونيل وجيمس ميسرشميت، ترجمة: ثائر الديب، العدد الثاني والثلاثون، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية، قطر، المجلد الثامن، ٢٠٢٠م.
- سلطة الذكورة وشرعيتها في الوعي النسائي. تحليل خطاب الحس المشترك، وسيلة بروقي، العدد الثالث، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، جامعة تبسة، الجزائر، ٢٠١٤م، المجلد الثالث.
- العنف الأسري والعدوان وتوكيد الذات، د. علاء محمود الشعراوي، د. وليد أبو المعاطي، د. محمد أحمد عيسى، مجلة بحوث التربية النوعية، جامعة المنصورة، إبريل ٢٠١٣م.
- المركزية الذكورية وثقافة النسق في قصص :"قصة ساعة" لكايت شوبان، و"بيت من لحم" ليوسف إدريس، و"امرأتان" لعاموس عوز– (دراسة مقارنة)، ندى يسري، مجلة رسالة المشرق، العدد الثالث، جامعة القاهرة – مركز الدراسات الشرقية، المجلد الرابع والثلاثون، ٢٠١٩م.
- المشكلات الاجتماعية التي تعاني منها المرأة العربية، أميمة أبو الخير، العدد الأول، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد الثامن عشر، ٢٠٢١م.